عنوان الليسانس: لسانيات عامّة.
السداسي الخامس. السنة الثالثة ليسانس
المادة: علم الدلالة 1
وحدة التعليم الأساسية. المعامل: 02. الرصيد: 04
نوع الدرس: محاضرة
إعداد الأستاذة: د. غنية تومي

المحاضرة 02 : الدلالة عند النحاة واللغويّين

تمهيد:

إنّ البحث في اللّغة العربيّة ومختلف قضاياها باب كبير للعلوم الدّينيّة والشّرعيّة من فقه وأصول وتفسير للقرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف وغيرها من العلوم، ليتشكّل ركام علمي زاخر من المصنّفات الغنية بشتى المباحث والأبواب اللّغويّة والأدبيّة والنّقديّة وغيرها، تتنوّع بين النظري والتطبيقي، وسنحاول استنباط مسائل الدّلالة منها، وتبيّين القضايا الدّلاليّة الموجودة فيها، مركّزين على أشهر المسائل الدّلاليّة التي اشتركت في بحثها نماذج مختارة من مصنفات العلماء القدامى في بيئات علمّية وفكريّة متنوّعة، وأهمّ تلك المسائل: علاقة اللّفظ بالمعنى، والدّلالة الإفراديّة والتّركيبيّة، وأنواع الدّلالة، والسّياق وأهميّته في تحديد الدّلالة المقصودة وتداولية الحدث الكلاميّ، ومختلف الظواهر الدّلاليّة كالتّرادف، والمشترك اللّفظي، والأضداد، نؤكّد من خلالها على علمية التّناول ودقّة الفكر الدّلاليّ التراثيّ.

إنّ جولة فاحصة في الركام التراثي العربي لتؤكّد تنبّه قدّماء العرب من الباحثين والدّارسين للّغة على اختلاف مشاربهم، إلى جملة قضايا هي من صميم البحث الدّلاليّ، منها العلاقات الدّلاليّة، من مشترك لفظي وأضداد، وترادف، وغيرها، كما تظهر تجسّد مفهوم الحقول الدّلاليّة إجراءً لا نظرا، من خلال الرسائل اللّغويّة ومعاجم الموضوعات، وعلاقة اللّفظ بمعناه، وأنواع دلالات اللّفظ، والتّنبّه الواضح لأهميةّ السّياق بنوعيْه، فمن قبيل هذه المسائل على سبيل المثال لا الحصر، الإشارة إلى الفرق الواضح بين دلالة اللّفظة مفردة، ودلالتها في السّياق؛ فقد لاحظوا البَوْن الشّاسع بين الدّلالتيْن في معظم الأحيان وإن لم يرد هذا بعبارة صريحة، غالبا؛ فنجد ملاحظاتهم عن الفرق بين الدّلالتين مبثوثة بين ثنايا مؤلّفاتهم وبالإمكان تلمّسها بالنّظر في القضايا التي درسوها والأمثلة والشّواهد التي ساقوها للتدليل والشّرح والتّأكيد على صحة ما ذهبوا إليه، ولملاحظة ذلك، سأنتقي أمثلة لبعض العلماء واللّغويّين من أعلام التّراث تمثيلاً لا حصرًا واستقصاءً، من باب توضيح وتأكيد رسوخ هذه الفكرة عندهم لا غير؛ فها هو **سيبويه** (ت180 ه) يبيّن أثر السّياق في توجيه المعنى بقوله:" يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحدًا في العدد لا اثنين، فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر

من ذلك أو يقول: أتاني رجل لا امرأة، فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليوم رجل، أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء، فإذا قال: ما أتاك أحد، صار نفيا [عامًّا] لهذا كلّه" [1]. فمن خلال تعدّد السّياقات تتعدّد المعاني لأداة واحدة من أدوات النفي في العربيّة هي(ما)؛ إذ " لا غرابة في أنّ التحليل النحويّ في العربيّة يعتمد في بعض جوانبه على فهم المعنى الذي يحدّده السّياق، فقد وجد في العربيّة كثير من الأدوات التي تتّحد صيغتها وتتعدّد معانيها واستعمالها، ووُجد التّضمين في الأفعال حيث يستخدم فعل في معنى فعل آخر، وغير هذا وذاك مما يعتمد في تحليله على فهم سياقه، وليس كلّ هذا لبس أو غموض؛ لأنّ الاستخدام اللّغويّ في السّياق يكشف عن كلّ هذه الجوانب كشفًا واضحًا بتقديم وسائل الترابط الخاصّة بأجزاء التراكيب في بناء الجملة "[2].

وفي الباب الذي عنونه بـ(هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف) نجد سيبويه يقدّر المحذوف من الجملة وفق السّياق اللّغويّ بقوله:"وذلك قولك: الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، و المرء مقتول بما قتل به، إن خنجرًا فخنجر وإن سيفًا فسيف، وإن شئت أظهرت الفعل فقلت: إن كان خنجرًا فخنجرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ، ومن العرب من يقول: إن خنجرًا فخنجرًا، وإن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، كأنّه قال: إن كان الذي عمل خيرًا جزي خيرًا وإن كان شرًّا جزي شرًّا، وإن كان الذي قتل به خنجرًا كان الذي يقتل به خنجرًا"[3]، فظاهر أنّ سيبويه قد راعى في تقديره المحذوف أو المضمر في الجملة معطيات السّياق وموجبات التركيب.

أمّا اللّغويّ والنّحويّ **ابن جني**(ت392هـ) فقد أشار إلى أهميّة السّياق أثناء بحثه مسوّغات حذف الصّفة مشيرًا إلى ما يعرَف حديثاً بـ: **التنغيم** ودوره في رصد الدّلالة؛ فقد كان " مِن أوائل مَن استشعر أهميّة التنغيم في أدائه دور القرينة النحويّة، وإن جاء كلامه عنه عَرَضًا عند حديثه عن حذف الصّفة ودلالة الحال عليها"[4]. يقول:" وقد حُذِفَت الصّفة ودلَّت الحالُ عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب، من قولهم: سِيرَ عليه ليل، وهم يريدون: ليلٌ طويلٌ، وكان هذا إنَّما حُذفَت فيه الصّفة لَمَّا دلَّ من الحال على موضعها، وذلك أنَّك تحسُّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله (طويل) أو نحو ذلك، وأنتَ تحسّ هذا من نفسك إذا تأمَّلته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثَّناء عليه، فتقول " كان والله رجلاً " فتزيد في قوة اللّفظ بـ (الله) وتتمكَّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليه، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكِّن الصوت بـ (إنسان) وتفخِّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك(...)، فَعَلَى هذا وما يجري مجراه تحذف الصّفة، فأمَّا إن عُرِّيَت من الدّلالة عليها من اللّفظ أو من الحال فإنَّ حذفها لا يجوز... "[5].

ويبدو من كلامه تفطّنه لأهمية التّلوين الصوتيّ المصاحِب للملفوظ اللّسانيّ، وإدراكه لدوره الدّلاليّ في فهم كثيرٍ من القضايا النحويّة والأسلوبيّة كالفصل بين كَوْنِ الجملة تقريرية أو استفهامية أو غير ذلك.

تنبّه كذلك ابن جنّي إلى أهميّة **القرينة** في اللّغة، ودورها الكبير في الاستدلال في قوله: " مَن قال إنَّ اللّغة لا تعرف إلَّا نقلًا فقد أخطأ، فإنَّها قد تعلم بالقرائن أيضًا، فإنَّ الرجلَ إذا سَمِعَ قول الشاعر[من البسيط](6):

قَومٌ إذَا الشَّر أَبدَى نَاجِذَيهِ لَهُم طَارُوا إلَيهِ زَرَافَاتٍ و أحدَانَا

يعلم أنَّ الزرافات بمعنى الجماعات"(7)، والقرينة في هذا البيت هي لفظة (أُحدانا)، فمصاحبتها للفظة (زرافات) و وُرودها معها في السّياق ذاته نحا بها إلى معنى الجماعات، أي أنَّ الشّر إذا لاح بقومٍ طاروا إليه جماعات و فُرادى.

وفي (باب زيادة الحروف وحذفها) أشار ابن جنيّ وأشاد بالسّياق ودوره في ترجيح أحد المعنييْن، فتكلّم في البدء عن القياس بقوله:" و هذا هو القياس: ألَّا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها، ومع ذلك فقد حُذفت تارةً وزِيدَت أخرى "(8) وفي هذه الزيادة أو الحذف (إجحاف وانتهاك) حسب تعبيره، ومن جملة الأمثلة التي ساقها عن الحذف، حذف همزة الاستفهام في بيت ابن أبي ربيعة[من الخفيف](9):

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُهَا، قُلتُ: بَهرًا # عَدَدَ القَطرِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ

وعليه علّق قائلاً:" أَظهَر الأمريْن فيه أن يكون أراد (أتحبّها) لأن البيت الذي قبله يدلّ عليه، وهو قوله(10):

أَبرَزُوهَا مِثلَ المَهَاةِ تَهَادى # بَينَ خَمسٍ كَوَاعِبٍ أَتَرَابِ

ولهذا ونحوه نظائر، وقد كثُرت"(11). إذن، فقد توسّل ابن جنيّ السّياق اللّغويّ وتجسَّد ذلك في أمريْن؛ الأوّل: حذف همزة الاستفهام لدلالة التنغيم عليها، أو طريقة إلقاء هذا الاستفهام التي أَغنَت الشاعرَ عن ذِكر الأداة، والآخر: دلالة البيت الذي قبله على هذا المعنى، و تجدُر الإشارة إلى أنّه في كثير من الأحيان كان النّحاة يُقدِّرون الأدوات في مثل هذه الحالات بهدف رَدِّ المعاني إلى عناصر لغويّة، تدرك في المدوَّن من العبارات و الجُمل.

يعتمد فهم الخطاب في الاستعمال الشفويّ بشكل كبيرٍ على التنغيم أو سياق الكلام، ومن ثمّة يُبسَط المعنى و تُتَرجَم الرّسالةُ بطريقةٍ شبه تلقائية، أمَّا في النّصوص المكتوبة فإنَّ اللّغة تحملُ عبءَ الرّسالة كلّها، وبخاصة تراثنا العربيّ الذي يحتاج منَّا إلى جهد كبير لفهمه، لأنه جاءنا مكتوبًا غير منطوق حتى تتَّضح فيه العلاقات بالتنغيم؛ إذ إنّ القول الشفويّ يفقد الكثير

من حركته و حيويته ودفئه حين يقيّد بالكتابة أو الطباعة، أي يفقد الوسائل التي تُعين على فهم النّص وتحديد المعنى، ومنها الصِّفات النطقية التي لا يمكن تقييدها كتابةً، بل يُستعاض عنها بعلامَات الترقيم التي تُعَيِّن إلى حدٍّ ما الدّلالة في النّص المكتوب، وتكون الأدوات الواردة في التركيب إحدى أنجع الوسائل لتبيين العلاقات، وإظهار الوشائج، وبالتّالي توصيل المعنى، " لأنَّ التّراث مكتوب تتَّضح فيه العلاقات بالأدوات وليس منطوقًا تتَّضح فيه العلاقات بالنّغمات "[12].

---

[1] -سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، (د. ت)، 55/1.

[2] -محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2003م، ص 11.

[3] -سيبويه، الكتاب، 1/ 258.

[4] -محمد محمد يونس علي، وصف اللّغة العربية دلاليًا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية-دراسة حول المعنى وظلال المعنى، مطابع اديتار، منشورات جامعة الفتح، الجماهيرية العظمى، (د.ط)، 1993م، ص313.

[5] -ابن جنيّ أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح. محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، (د. ت)، 371-370/2.

[6] -الشاعر هو: قريط بن أنيف، شرح ديوان الحماسة، التبريزيّ، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة، (د.ط)، (دت)، 15/1.

[7] -ابن جني، الخصائص، 270/2.

[8] -نفسه، 280/2.

[9]-الشّطر الثاني في الدّيوان: **عَدَدَ النَّجمِ وَالحَصَا وَالتُّرَابِ**. عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، (د.ط)، 1978م، ص30.

[10] -ابن جني، الخصائص، 280/2.

[11] -نفسه، 281/2.

[12] -تمّام حسّان، اللّغة العربية معناها و مبناها، ص 228.